الحوار في فكر الإمام ابن باديس

بين معطيات الواقع.. واستراتيجية الأهداف

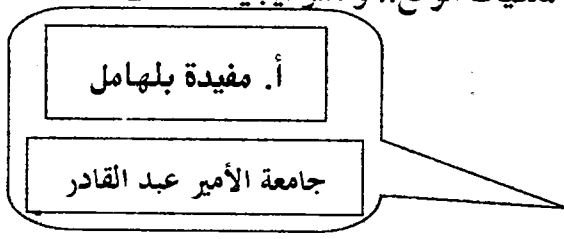

خضعت كل دول العالم العربي والإسلامي للاستعمار الغربي المسيحي. تنوعت طرق ووسائل وأساليب مقاومته بين مقاومة مسلحة ومقاومة صامتة أو سلبية كما يسميها بعض المؤرخين .تلتها حركات تحرير وطنية مسلحة .وقد سبقتها أو تزامنت معها حركات تحرير أخرى ثقافية وحضارية وروحية .تولتها النخب العربية الإسلامية عبر كل أقطار العالم العربي والإسلامي. لصياغة واقع الأمة الإسلامية الحضاري المتردي نتيجة هذا الاستعمار الذي أصابها في العمق – ضمن مشروع لم تنته فصوله بعد – بتمزقات وشروخات خطيرة مست كل قطاعاته حتى بلغ ضميرها وبات يهدد مستقبلها بالاندثار الوشيك ...فكان السؤال التاريخي والحضاري الهاجس الكبير للنخب العربية والإسلامية هو: كيف نقوم بتحديث مجتمعنا العربي الإسلامي .كيف ننجز التقدم .ونساهم في الجهد الإنساني لبناء المستقبل. كيف نحرر امتنا حضاريا ونعيد بناء خصوصيتها بين الأمم والحضارات ؟. وتجربة الحوار مع الآخر –الاحتلال الفرنسي – التي مارسها الإمام عبد الحميد بن باديس –رحمه الله– .من خلال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .بكل ثرائها في فلسفة الطرح وخصوصية الوسائل.وأصالة التعامل. واستراتيجية الاهداف. وجه من وجوه تجربة النخبة العربية الإسلامية الجزائرية في حمل عبء التغيير وفي الإجابة عن ذات السؤال. واختيار هذه التجربة للدراسة والبحث. يعود لأسباب موضوعية يفرضها الواقع العالمي والإقليمي والمحلي منها:

1- خصوصية الأجواء العالمية الراهنة من تسارع في الاحداث. وتغيير في العلاقات الدولية عبر تبلور نظام عالمي لما بعد نهاية الحرب الباردة. وفي ظل عولمة تعني أحادية قطبية تمارس فرض قيادتها على الجميع. وتعود بنا إلى أجواء الحماية والانتداب من جديد تتميز بكونها اكثر شراسة وذكاء وتجمعا وحيلة. يقابلها عالم إسلامي اكثر تمزقا وتبعية. واقل حيلة واعمق تيهانا. مما يجعل السؤال يطرح بألم شديد والإجابة عنه ابعد من ان تقلل من هذا الألم ناهيك عن ان تشفي غليل قوم مظلومين.

2-ان صوت الحوار ينبعث بقوة من جانب العالم الإسلامي تجاه الآخر ويحمل دفاعا عن تهمة باطلة. ومرافعة عن جرم لم يقترف. يقدم الولاء ويطلب الصفح والرضى. بينما الآخر يعلن الصراع والصدام ويدق طبول الحرب وينذر للخوف من عدو من محض الخيال - بديل - ويستعد لرد عدوان لن يأتي مع أن وضوح الظالم من المظلوم. والقوي من الضعيف.. ما يجعل من المغالطة اقرب إلى الحيرة والجنون في عالم تحكمه شرعية الغاب بإنسانية مزيفة ؟

3- على الرغم من أن طروحات الحوار في الراهن العربي الإسلامي تشترك في حمل هم الأمة في تفكير إمكانات الإقلاع. إلا أنها في تناقضها حول مفهومه وحدوده وحول ماذا يجوز بذله قربانا لقبوله مما لا يجوز. ا يمكن تصنيفه في خانة القصور الواضح في قراءة دروس التاريخ. حقائق الماضي ونتائج الحاضر. والغفلة عن عمق تقويم تجارب الشعوب وقت المحن والأزمات ويتعلق الأمر خاصة بالطروحات التي تكرس خيار التكييف والتلفيق والتوفيق والترقيع والتي جعلت منه وصفات مزمنة لمرض غير مزمن ... ظاهرها إرادة التحديث وحقيقتها خطوات متسارعة لإكمال فصول الاستلاب والتبعية والانضواء تحت الآخر عبر الخواء من الخصوصيات تدريجيا وبتقمص أساليب الآخر ووسائله وطرق حياته ونمط مؤسساته ...وحتى أسباب قلقه التي ليست بالضرورة أسباب قلق الإنسان المسلم الروحية والحضارية والمادية. قلق المتعة والقيادة وقلق الحق في الوجود .

4- إن تجربة الحوار التي مارسها الإمام ابن باديس عبر جمعية العلماء هي تجربة جزائرية أصيلة افرزتها عقلية إسلامية حرة ومتفتحة .إذ لم تشوهها برامج ا لمدرسة الفرنسية ومناهج مستشرقيها وقساوستها . فلم تحدد لها المسار الذي تفكر به ولا الحدود التي لا تحيد عنها .ولم تؤثر فيها حملات التيئيس والتبخيس الطويلة بالوصفات الجاهزة والتي تشكك في الماضي والحضارة واللغة والدين بلغت لدى البعض حد تحقير الذات .. والتنكر للأهل والأرض ..ومن ثم كانت تجربة أصيلة واضحة فخورة واثقة ومحتسبة. فهمت ان حياة الشعوب في حياة ذاتيتها .في مضمونها الحضاري وعمقها التاريخي .

5- وان لا أحد يدعي معرفة الحقيقة كاملة .فان هذا وجه من وجوهها فحسب. وهي فرصة للاستلهام من تجربة الحوار مع الآخر -الاحتلال الفرنسي - في فكر ابن باديس عبر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. كما هي فرصة للحوار مع الذات الحضارية والتاريخية للشعب الجزائري المسلم .

1- منطلقات الحوار مع فرنسا ومحدداته في الفكر الباديسي عبر جمعية العلماء

1 - ندرك تماما بأن ظهور جمعية العلماء لم يكن لتسمح به إدارة الاحتلال لولا تحديد العلماء " للخطوط الخضراء" التي قدموها إطارا عمليا وعلميا لهذه الإدارة قصد استجلاب موافقتها. وقد كانت تلك ورقة عمل وميثاق مقدم بين يديه التواصل والتحاور ضمن القوانين المعمول بها في الجزائر تحت قبضة الاحتلال الفرنسي. والتي هي من صنع إدارة هذا الاحتلال.

وفي قراءة متفحصة للقانون الأساسي للجمعية الذي يحوي تلك " الخطوط الخضراء " نتبين أن مواده قد صيغت بذكاء مؤسس وعلم نافع مطلع أهدافه بعيدة .جعلت القوانين الاستعمارية في الجزائر عدما بعد ما أفرغتها من كل فاعلية وأسقطت عنها كل سلطة معنوية أو مادية قي كل ما يخص شؤون الجمعية ونشاطها. مما يعطي فعل العلماء صفة المبادرة المستقلة والقرار الناضج ويؤكد ما وصف به "محمد البشير الإبراهيمي" القانون الأساسي للجمعية على إنه قد صيغ "

بطريقة قائمة على قواعد من العلم والدين لا تثير شك ولا تخيف"[1] ومن هذه المواد: 1 جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. جمعية دينية تهذيبية. 3 لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتدخل في السياسة .5 تتذرع الجمعية إلى غايتها بكل ما تراه صالحا نافعا غير مخالف للقوانين المعمول بها. ومنها أن تقوم بجولات في القطر في الأوقات المناسبة. 6 من حق الجمعية أن تؤسس شعبها في القطر وأن تفتح نوادي ومكاتب حرة للتعليم الابتدائي"[2]

وتؤخذ بعين الاعتبار الظروف الصعبة التي كان يعيشها الشعب الجزائري وحاجته الماسة إلى من يبعثه من جديد. وكذا قبضة القوانين الظالمة التي تخنق أنفاسه وتربصها بكل من يحيد عنها ندرك الهدف من إعلان العلماء عن وصف جمعيتهم بالدينية – وقد كانت دينية فعلا بمفهوم الإسلام للدين كنظام للحياة والآخرة– ثم تأكيدهم أنها لن تخوض أو تتدخل في السياسة وبأن ذلك من قبيل الحيلة والمناورة بالاستجابة للقوانين الفرنسية التي تحرم على الجمعيات الدينية – بمفهومها للدين طبعا – تعاطي السياسة. ثم ان تكرار عبارة القوانين المعمول بها يفهم من قبيل المهادنة والمسالمة والتكتيك التي بفضلها تكون المحافظة على المولود الجديد –جمعية العلماء – ويضمن الحركة والحرية لنشاطها تحت حماية هذه القوانين نفسها وبإذن إدارة الاحتلال أيضا .وعموما هو ضمان شرعية الوجود والنشاط في ظل قوانين أخرى تحرم ذلك. وإمعانا في المسالمة وإظهار حسن الطاعة وإبعادا لكل شك عمد" ابن باديس" الى

– إعلام الإدارة بوقائع الإعداد والتاسيس وعقد سلسلة من الاجتماعات للمجاملة ولاعلان مبادئ الجمعية لمدير. الشؤون الاهلية –السيد ميرانط – في ذلك الوقت وكذا لبعض المسؤولين الفرنسيين وللحديث عن اهمية الجمعية واهدافها..

---

1 – الشهاب ج5،م7 ماي 1991م.

2– من فصول القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

– دعوة – ميرانط–لحضور الحفل الذي إقامته اللجنة التحضيرية على شرف الضيوف في نهاية اشغالهم –لكنه اعتذر–وقد نجح ابن باديس بحسن تصريفه للأمور مع زملائه العلماء في تفويت الفرصة على الإدارة الاستعمارية بان تجد بمن أو بما تحتج به كي ترفض الترخيص للجمعية. وعلى العكس من لك فقد اثمرت لقاءات المجاملة تلك في ان ينال ابن باديس الاستحسان والتشجيع للجمعية. "وجاءها الترخيص سريعا –بعد خمسة عشر يوما فقط –"[3] نشات الجمعية والحكومة لا تدري ماذا تصنع ولا تعرف بماذا تقابلها "[4]

2– مرحلة إعلان المبادئ: الحوار مبدا عند ابن باد يس عمد العلماء عند إعلان ونشر القانون الأساسي للجمعية إلى اخفاء أهدافهم البعيدة لأنهم كانوا على علم بنوايا الحكومة ازاءهم. فدبجوه لمرحلة لها اهدافها الخاصة وقد نجحوا في تحقيقها وباشروا العمل .لتاتي مرحلة اعلان المبادئ والمصارحة بعد المجاملة .فقد نشر ابن باديس دعوة وأصول جمعية العلماء في ماي 1937م نشرته جريدة "البصائر" في جوان 1937 م في كتيب واحد مع القانون الأساسي للجمعية والذي كان قد سبق نشره ونال موافقة إدارة الاحتلال الفرنسي عليه ورضاها عنه مما يؤكد إنه امتدادا له أو هو شرح وتفصيل لماده نفسها .ولذلك تعجب أحد الكتاب الفرنسيين من عدم نشر هذه المبادئ منذ البداية ولكنه أشار الى ان" أصول دعوة الجمعية" كانت مبثوثة في صحافة الجمعية منذ تاسيسها وكل ما حدث أنها جمعت في كتيب واحد." [5] مما جاء في هذه الأصول المبادئ ما يلي: الاسلام هو دين البشرية الذي لا تسعد إلاّ به وذلك لأنه :

اولا :كما يدعو إلى الاخوة الإسلامية بين جميع المسلمين .يذكر بالاخوة الإنسانية بين البشر اجمعين

3– ابو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج3،ص87.

4– توفيق المدني، حياة كفاح، القسم الثاني ص 26.

5– المطهقاني، مارن صلاح حامد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية1931–1939م، سوريا، دار القلم لبنان، دار العلوم،1988 م، ص 87 تقلا عن Richmont,Les Ulamas Algeriens ,La nouvelle revue Francaise..

ثانيا: يسوي في الكرامة والحقوق الإنسانية بين جميع الناس بلا أدنى تمييز. ثالثا: لأنه يفرض العدل فرضا عاما بين جميع الناس بلا أدنى تمييز. رابعا :يدعو إلى الإحسان العام. خامسا: يحرم الظلم بجميع وجوهه وباقل قليله من أي احد على أي احد. سادسا: يمجد العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلها على التفكير. سابعا: ينشر دعوته بالحجة والاقناع لا بالختل والإكراه. ثامنا: يترك لاهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبقونه كما يشاؤون. حادي عشر: يحرم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه. ثاني عشر: يجعل الحكم شوريا ليس فيه استبداد ولو لا عدل الناس....."[6]

والقراءة المتفحصة لمواد دعوة الجمعية وأصولها تبين بأن ابن باديس رحمه الله ومن ثم فريق العلماء الذين معه قد اختار الدين _ الإسلام _ منهاجا للتغيير وترجمة ذلك هو تتبع كل ما مسه معول إرادة الاحتلال وحكومتها – عبر مدارسها ومناهجها وحملاتها وقوانينها، وسياستها وتصريحاتها – بالهدم تتبعه بإعادة البناء وبعث روح الحياة فيه من جديد. وبعبارة أخرى هو تجدير الإنفصال الواقعي للشعب الجزائري عن الاحتلال الفرنسي عبر مقوماته الطبيعية التي تميزه حقا وفعلا عما عملت وتعمل فرنسا – الاحتلال– على اماتتها فيه وإبعاده عنها بكل الطرق والوسائل. وذلك بتجديد بأصالة الإنتماء الديني واللغوي والتاريخي والحضاري وهو ما لا تحل مقالة أو درس أو خطبة أو وعظ أو لقاء أو رحلة لابن باديس من قوة ابرازه والدعوة إليه والذود عنه قال ابن باديس في مقالة عنوانها" المسألة مسألة الأمة كلها لا مسألة جمعية العلماء وحدها "بأن ما" تشعربه الجمعية كجمعية هو ما تشعر به الأمة كلها كأمة تدين بالإسلام وتنطق بلغة الإسلام فكانت الجمعية لهذا في كل ما تقوم به، إنما تنطق بلسان الأمة كلها، تعرب عن نفستها، وتعمل بيدها. "[7] ونشرت وثيقة رسمية فرنسية عن الإدارة المحلية في الجزائر سنة 1954 م" بأن تقوذ العلماء كان هو الخطر الحقيقي على السيادة الفرنسية لأن هدفهم هو تكوين

6– وزارة الدينية ،اثار الإمام ابن باديس،رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الجزائر 91 ج5،ص 153–154

7– المصدر نفسه،ص 392–393

الإنسان المسلم "[8] هو ما يجب العودة إليه والتأكد عليه بأن خطة ابن باديس عبر جمعية العلماء إنما كان إعادة بعث الحياه في مقومات الإنسان الجزائري حتى تترجم في فعالية البناء عبر ثلاثية عناصر الحضارة: الإنسان، الفكر، التراب، والطريف أن ابن باديس في مقالاته الموجهة إلى إدارة الإحتلال، أو إلى حكومته كان دوما يمهد لها بهذه الخصوصية نحو: " نحن قوم مسلمون جزائريون، في نطاق مستعمرات الجمهورية الفرنسوية "[9]. ولا تفوتنا الإشارة إلى آن ابن باديس في إعلانه لمبادئ الجمعية مع القانون الأساسي الذي كان قد أعلن عنه ونشر سابقا، وفي المواد التي نقلناها أعلاه فإنما لسان حاله يقول بصراحة:

1 – أنك يا – إدارة الاحتلال –يافرنسا– انت التي تدعين مبادئ الأخوة العامة لا تؤمنين بها ولا تطبقينها في الجزائر .

2 – أنك لا تقيمين المساواة في الكرامة والحقوق الإنسانية بين قومك من الكولون والفرنسيين عموما وبين الشعب المسلم .

3 – أنك تحكمين بالاستبعاد والجبروت بكل وجميع وجوهه.

وبعد تذكيره بان الإسلام هو دين العدل والحرية والكرامة والمساواة ،عبر مختلف مواد مبادئ الجمعية ،يقف ابن اديس موقف المعلم ليغمز سياسة المستعمر المتعنت الذي يميز بين الاروبي واليهودي من جهة وبين السكان المسلمين اهل البلاد من جهة أخرى ليكشف للمغرورين والمخدوعين بمبادئ الديمقراطية الفرنسية ومدنيتها ،إنها لا تمت إلى الإنسانية بصلة ،وان الافضل لهم ان يتمسكوا بمبادئ دينهم الذي يغنيهم عن كل الديمقراطيات الغربية..–و يقول –

---

[8]– المطبقاني ،المرجع السابق ،ص 83 نقلا عن وثيقة :
L'Algérie du demi _siecle,vue des autorites locales, gouvernement general, janvier 1954

[9]– مبادؤنا وغايتنا وشعارنا، المنتقد ع1، 1935/7/2 م

"بان الجمعية وجهت لطمة قاسية إلى الحضارة الفرنسية الاستعمارية حين وضحت ان الإسلام يحرم الاستعباد والجبروت بكل وجوهه." [10]

وإمعانا في بيان هذا الاتجاه فقد جاء في مقال: "مبادئنا وغايتنا وشعارنا"في جريدة المنتقد سنة 1925م :"فلاننا مسلمون نعمل على المحافظة على تقاليد ديننا التي تدعو الى كل كمال انساني. ونحرص على الاخوة والسلام بين شعوب البشر وفي المحافظة على هذه التقاليد المحافظة على أهم مقومات قوميتنا واعظم أسباب سعادتنا وهنائنا .لأننا نعلم إنه لا يقدر الناس ان يعيشوا بلا دين وان الدين قوة عظيمة لا يستهان بها .وان الحكومة التي تتجاهل دين الشعب تسيئ في سياسته وتجلب عليه وعليها الأضرار والأتعاب ...لا نعني بهذا اننا نخلط بين الدين والسياسة في جميع شؤوننا. وانما نعني اعتبار الدين قواما لنا .ومهيعا شرعيا لسلوكنا .ونظاما محكما نعمل عليه في حياتنا .وقوة معنوية نلتجئ إليها في تهذيب اخلاقنا وقتل روح الفساد منا واماتة الجرائم من بيننا .فلهذا لا نالو جهدا في خدمته بنشر مبادئه الحقة العالية وتطهير ه من كل ما احدثه فيه المحدثون والدفاع عنه من ان يمس بسوء من اهله أو من غير اهله.". [11]

3- شرط العلم في- الحوار مع الآخر- ...مبدأ محوري

لم تسمح جمعية العلماء بحق العضوية الكاملة فيها إلا لكل من يحمل لقب عالم .او المشهود له بالعلم في منطقته وسواء في ذلك المتخرج من الدارس الحكومية أم من المعاهد الإسلامية الاخرى .فقد جاء في الفصل الثاني عشرمن القانون الأساسي لجمعية العلماء ما يلي: "يعتبر عضوا كاملا- في الجمعية - كل من يحمل لقب" عالم " ويسكن القطر الجزائري " [12]- وذلك مع اعتبار مفهوم

10- عبد الكريم بوالصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945م، قسنطينة، دار البعث، 1981م، ص 144

11- المصدر السابق ص1

12- انظر القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في: وثائق الحركة الوطنية، نصوص أساسية ووثائق من 1350هـ /1931م إلى 1363هـ/1944م، رقم 7-8-9 الجزائر، مطبوعات مدرية الوثائق لولاية قسنطينة 1982م

العلم ومفهوم العالم في فكر ابن باديس وكذا عند جمعية العلماء- ويبدو غرض العلماء في ذلك واضحا ويتمثّل في رفع يد إدارة الاحتلال معنوية كانت أم استشارية عن نشاط الجمعية اوتوجيهها بعدما رفعوا يدها ماديا حتى لايقعوا تحت طائلة المساومة .ومن ثم تجلب الجمعية لنفسها ما تستحق من الاحترام والتقدير والتوقير .وتدفع إدارة الاحتلال إلى ان تحسب للعلماء وللجمعية ما يلزم من الاستشارة والحضور الفاعل على الساحة الجزائرية. إن اختيار العلماء لمسمى -جمعية العلماء المسلمين الجزيين- نفسه تنبيه منهم الى ضرورة وضع شؤون إلا مة بين ايدي اصحابها الحقيقيين وهم علماؤها والمؤهلون لتمثيلها بعيدا عن المهاترات الحزبية وملهاة التمثيل النيابي واللعبة السياسية التي كان يتفكه بها المستعمرون على ذمم الذين ادخلوهم إليها وقد اهلكت الاموال والذمم .وعلماء الأمة هم الاقرب إليها لانهم الأعلم بسر الصراع ومساحته وحقيقته بينها وبين الاحتلال الفرنسي" [13]وهم الاوعى بالامها وآمالها. وبالتالي فهم الأعلم بحلول أزماتها من الجذور والأحرص على مصالحها لكلها الآنية والبعيدة وهم بعد ذلك الأقرب إلى مشاعرها والأبعد عن الشبهات في الدفاع على مقوماتها " بشير بن باديس في هذا الصدد في مقالته الصريحة: " كلمة صريحة" [14] التي نشرتها الشهاب سنة 1936م والتي أحدثت أثرها المطلوب وكان له دوي عظيم كما كان يتوقعه ابن باديس نفسه في مقالته التالية " حول كلمتنا الصريحة"[15] نشرها بعد شهرين من نشر المقالة السابقة من السنة نفسها وجاء في تعليقه " أنها كانت أول مرة فيما أعلم جوبهت فيها الحكومة وجوبه فيها رجال السياسة بحقيقة ناصعة هي عين الحقيقة التي تعتقدها الأمة وفيها بيان لعواطف وإحساس وشعور الأغلبية المطلقة من سكان هذا الوطن الجزائري " [16]

13- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شهين، عمر مسقاوي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،ص22.

14- آثار عبد الحميد بن باديس ،مصدر السابق ج5،ص292-294 " نشرت المقالة في مجلة الشهاب 1936م

15- الصدر نفسه ص 295-297

16- الصدر نفسه ص 295-297

وقد كان "فرحات عباس"هو محور موضوع المقالة الأولى لأنه كان رأس دعاة الإندماج ومما جاء فيها " حقا إننا نعيش في وسط سادت الفوضى فيه من جميع جهاته. فمن فوضى في الدين إلى فوضى في الإخلاق إلى فوضى في الإقتصاد. وزادتنا الأيام على كل ذلك فوضى جديدة ربما كانت أخطر الفوضات وأشدها تأثيرا على حياة الأمة. وهي فوضى التكلم باسم الأمة فما من متكلم في أي مناسبة من المناسبات إلا ورفع عقيرته مدعيا بأنه إنما يمثل الأمة الإسلامية قاطبة في هذه البلاد. وأن الكلمات التي يقولها من عند نفسه إنما هي كمة الحق وقولها الفصل. ولو أنهم اقتصدوا في القول ولم يلجوا باب الغلو والإسراف. وقالوا إننا نتكلم باسم الفريق الذي انتخبنا أو باسم الهيئة التي ننتمي إليها. أو باسم الجماعة التي نحن منها أو باسم الذين يشاركوننا في الرأي والتفكير فكان قولهم أصوب ورأيهم أصلح. وكلامهم أقرب إلى نفوس السامعين من رجال الحكومة ومن رجال الشعب ..." وبعدما يشرح توجه دعاة الإندماج وخاصة مقولة فرحات عباس"يقول :" لا ياسادتي. نحن نتكلم باسم قسم عظيم من الأمة . بل ندعى أننا نتكلم باسم أغلبية الأمة فنقول لكم ولكل من يريد أن يسمعنا. ولكل من يجب عليه أن يسمعنا ..."[17]

7وقد حدد ابن باديس أصول الولاية في الإسلام وامر تولي المسلمين في مقالة علمية نشرتها مجلة االشهاب سنة 1938 م.استلهمها من خطبة الخليفة العظيم ابي بكر الصديق رضي الله عنه – وذلك عبر فقرات تحدد قراءة الواقع الجزائري في فوضى التمثيل النيابي والانتخابات ذات القوالب الفرنسية وسيلة واسلوبا وهدفا وهو ما ارادت فرنسا تحقيقه بايدي الجزائريين ،ومن ثمالتنبيه الى ما يجب ان تكون عليه في حالة ما اذا كانت الظروف عا دية في الوطن الجزائري المسلم فنجد ما ياتي:

1–لا حق في ولاية أمر من امور الأمة إلا بتولية الأمة .فالأمة هي صاحبة الحق والسلطة في الولاية والعزل

2–الذي يتولى أمرا من أمور الأمة هو اكفؤها فيه لاخيرها في سلوكه.

17– الصدر نفسه ص 295–297

3- حق الأمة في مراقبة أولي الامر ، لأنها مصدر سلطتهم وصاحبة النظر في ولايتهم وعزلهم

4- حق الوالي على الأمة فيما تبذله من عون اذا رات استقامته فيجب عليها ان تتضامن معه وتؤيده .اذ هي شريكة معه في المسؤولية. 6- حق الوالي على الأمة في نصحه وارشاده ودلالته على الحق اذا ضل عنه وتقويمه على الطريق اذا زاغ في سلوكه. 7-حق الأمة في مناقشة اولي الامر ومحاسبتهم على اعمالهم، وحملهم على ما تراه هي لا على ما يرونه هم فالكلمة الاخيرة لها لا لهم. وهذا كلهٍ من مقتضى تسديدهم وتقويمهم عندما تقتنع بأنهم على باطل، ولم يستطيعوا ان يقنعوها انهم على حق. 8-على من تولى امرا من امور الأمة ان يبين لها الخطة التي يسير عليها .لتكون على بصيرة ويكون هو سائرا في خطته عن رضى الأمة، اذ ليس له ان يسي بها على ما يرضيه هو وانما عليه ان يسير بها فيما يرضيها هي

9-لا تحكم الأمة إلا بالقانون الذي رضيته لنفسها ،وعرفت فيه فائدتها،وما الولاة إلا منفذون لارادتها فهي تطيع القانون لأنه قانونها ،لا لان سلطة أخرى لفرد أو لجماعة فرضته عليها كائنا من كان ذلك الفرد ،وكائنة من كانت تلك الجماعة، فتشعر بأنها حرة في تصرفاتها وأنها تسير نفسها بنفسها وأنها ليست ملكا لغيرها من الناس لا الافراد ولا الجماعة ولا الأمم. ويشعر هذا الشعور كل فرد من افرادها إذ الحرية والسيادة حق طبيعي وشرعي لها ولكل فرد من افرادها.

10 – صون الحقوق، حقوق الأفراد وحقوق الجماعات، فلا يضيع حق ضعيف لضعفه ولا يذهب قوى بحق" أحد لقوله عليه .

11 – حفظ التوازن بين طبقات الأمة عند صون الحقوق، فيؤخذ الحق من القوي دون أن يقسى عليه لقوته فيعتدى عيه حتى يضعف وينكسر، ويعطي الضعيف حقه دون أن يدلل لضعفه فيطغى عليه وينقلب معتديا على غيره.

12- شعور الراعي والرعية بالمسؤولية المشتركة بينهما في صلاح المجتمع. وشعورهما -دائما- بالتقصير في القيام بها ليستمر في العمل بجد واجتهاد فيتوجهان بطلب المغفرة من الله القريب عليهما

ويتساءل ابن باديس في النهاية غامزا سياسة فرنسا وحكمها ومبادئها وديمقراطيتها. بل عن الأمم الأخرى عدا الأمة الإسلامية حين استمدت حكمها من الإسلام وانقادت إليه فقال: " هل كانت هذه الأصول معروفة عند الأمم فضلا عن العمل بها" ؟ويجيب - تلك الأمم ومنها فرنسا- كانت غارقة في ظلمات من الجهل والأنحطاط. وترسف في قيود الذل والإستبعاد تحت نير الملك ولكهنوت. وأن لا نجاة لهذه الأمم وكذا للأمة الجزائرية الإسلامية إلا بالعودة إليها وبها ." [18]

4- الحوار في فكر ابن باديس عمل حثيث. فاعل. هادئ. لاستعادة الحرية والاستقلال لا نجد في ما كتبه ابن باديس ابدا عبر اثاره وحتى في مرحلة المسالمة والليونة ما يشيرالى بقبول فرنسا -الاخر- كمرجعية حضارية وثقافية ولغوية بديلة عن مرجعية الشعب الجزائري الحضارية والثقافية واللغوية الاصلية. اوالقبول بها بالانضواء تحتها .على الرغم من ضغوط الواقع وصعوبة معطياته التي تصنعها الإدارة الفرنسية للتضييق على المسلمين الجزائريين واجبارهم على الاخذ بقوالبها في كل ابعادها .ولذلك نجد ابن باديس يؤكد دوما على تميز واختلاف انتماء الشعب الجزائري عما تطرحه فرنسا بالصوت والسرط.عن انتماء الشعب الفرنسي .ونتلمس ذلك في الكتابات الباديسية قبل ظهور الجمعية وبعدها. لقد اراده ابن باديس ممارسة وحوارا للشعب الجزائري عبر ممثليه المؤهلين مع الشعب الفرنسي عبر ادارته وحكومته .في:

أ- شعارات صحافة الجمعية .فشعار صحيفة "المنتقد" التي ارادها صاحبها جريدة سياسية تهذيبية انتقادية ، وأنها جريدة حرة وطنية تعمل لسعادة الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديمقراطية .تحت شعار الحق فوق كل احد والوطن قبل كل شيئ. وقد عملت "الشهاب" جريدة

18- المصدر نفسه ص 292-294، بتصرف .

ومجلة تحت الشعار نفسه وللآهداف تفسها بأسلوم أكثر جرأة وصراحة من أختها "المنتقد" وقد كتب ابن باديس في العدد الأول من الشهاب: هذه هي جريدتنا اليوم التي سنقدم بها ما هو خير ونافع للأمة الجزائرية وحكومتها الفرنسوية ... وإننا لا نريد إلا أن نعيش مع جميع أبناء فرنسا في حرية وأخوة ومساواة. متحابين متعاونين في ما فيه سعادة الجميع" 19.

هدا بالإضافة إلى شعار الجمعية المحوري الذي عملت على تجذيره عبر وسائلها المختلفة في الواقع الجزائري. وترقية المستوى الفكري والعقلي ومحاربة الجهل بين الجزائريين حتى يكونوا في مستوى: الإسلام ديننا. العربية لغتنا. الجزائر وطننا .

ب: الرد على دعاة الإندماج الذين أنكروا أن يكون للامة الجزائرية تاريخها الخاص. قال ابن باديس في مقالة "كلمة صريحة ": نشرتها الشهاب في 1936م: " إننا نحن فتشنا في صحف التاريخ. وفتشنا في الحالة الحاضرة. فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة. كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا ولهده الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال. ولها وحدتها الدينية واللغوية. ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح. شأن كل أمة في الدنيا ..

ثم إن هده الأمة الجزائرية الإسلامية. ليست هي فرنسا. ولا يمكن أن تكون فرنسا. ولا تريد أن تصير فرنسا. ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها ولا تريد أن تندمج. ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة والذي يشرف على إدارته العليا السيد الوالي العام المعين من قبل الدولة الفرنسية."[20]

جـ- ويتدرج ابن باديس في تجذير المرجعية المستقلة.و بذر بذور الحرية وإعادة الإستقلال. فنجده يصف الشعب الجزائري بصديق الشعب الفرنسي. وأن حق هذه الصداقة من الفرنسيين احترام دين الجزائريين ولغتهم. يقول: " فنحن الجزائريين المسلمين العائشين في وطننا

19_ الشهاب ع1، 25 ربيع الثاني 1344 هـ / 12نفمبر 1925م، ص1
20_ المصدر السابق ص 295-297

الجزائري... نعيش مع الفرنسيين، عيش الأصدقاء المخلصين، نحترم حكومتهم وقوانينهم، ونطيع أوامرهم ونواهيهم، ونريد منهم أن يحترموا ديننا ولغتنا، ويحفظوا كرامتنا، ويأخذوا بأيدينا في طريق النهضة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهكذا نعيش معهم وإياهم أصدقاء مخلصين ... وعلى هذا الأساس، توضع الأمور في مواضعها، ويحصل التفاهم ويزول كل التباس"[21] ولا تخلو مقالة من مقالات ابن باديس عن الحديث عن تعشق الجزائريين للحرية وعمل جمعية العلماء لتحقيقها، تصريحا أو تلميحا، ويذهب إلى أن الأمور لا يمكن أن تدوم على حالها وأن يوم الحرية والاستقلال أت لا ريب فيه، قال"... أيها الشعب إنك بعملك العظيم الشريف برهنت على انك شعب متعشق للحرية وهائم بها تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ ركنا نحن الحاملين للوائها، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها وكيف نحيا ونموت لأجلها ..

إننا مددنا إلى الحكومة الفرنسية أيدينا، وفتحنا قلوبنا، فإن مدت إلينا يدها وملأت بالحب قلوبنا فهو المراد، وإن ضيعت فرنسا فرصتها هذه فإننا ننفض أيدينا ونغلق قلوبنا فلا نفتحها إلى الأبد..

أيها الشعب لقد عملت وأنت في أول عملك فاعمل ودم على العمل، وحافظ على النظام واعلم أن عملك هذا على جلالته ما هو إلا خطوة ووثبة وراءه خطوات ووثبات، وبعدها إما الحياة وإما الممات" [22]

وقال سنة 1937م "... ممن الممكن أن يدوم الاتحاد بين شعبين مختلفين في الجنسية القومية إذا تناصفا وتخالصا مما ارتبطا به من الجنسية والساسة التي قضت بها الظروف واقتضتها المصلحة المشتركة، فإذا لم يرتبطا بالجنسية السياسية فلابد لهما - مهما طال الأمر- من أحد أمرين: إما أن يندمج أضعفهما في أقوامهما بانسلاخه من مقوماته ومميزاته فينعدم من الوجود وإما أن يبقى الضعيف محافظا على مقوماته ومميزاته فيؤول أمره - ولابد - إلى الإنفصال وبعد

21--المصدر نفسه ص 295-297

22-المصدر نفسه ص 316-317

فنحن الأمة الجزائرية لنا جميع المقومات والمميزات لجنسيتنا القومية وقد دلت تجارب الزمان والاحوال على اننا أشد محافظة على هذه الجنسية القومية وأننا مازدنا مع الزمان إلا قوة فيها. وتشبثا بأهدافها. وأنه من المستحيل إضعافنا فيها فضلا عن إدماجنا أو محونا ..."[23]

ويعلن ابن باديس صراحة اليأس من فرنسا ومن سياسة فرنسا في صحافة الجمعية بعدما بين للشعب مماطلة فرنسا في إعطائه حقوقه وأحلافها في وعودها له بعد مؤتمر 1936 م ففي مقالة :"هل ان الاوان من اليأس من فرنسا "؟نقرا توعدا صريحا بالثورة ،ودفع للشعب الجزائري إليها وتنبيهه إلى عدم الثقة في السياسة الفرنسية والاعتماد على نفسه بالتضحية ،قال: "كذب رأي السياسة وساء فالها .كلا والله لاتسلمنا المماطلة إلى الضجر الذي يقعدنا عن العمل وإنما تدفعنا إلى اليأس الذي يدفعنا إلى المغامرة والتضحية ... أيها الشعب الجزائري ،ايها الشعب المسلم ،ايها الشعب العربي الابي ..حذار من الذين يمنونك ويخدعونك ،حذار من الذين ياتونك بوحي من غير نفسك وضميرك، ومن غير تاريخك وقوميتك ،ومن غير دينك وملتك، وابطال دينك وملتك. استوح الإسلام ثم استوح تاريخك ثم استوح قلبك اعتمد على الله ثم على نفسك " 24

وقد شرح وعلق الشيخ احمد حماني -رحمه الله- على عبارة" المغامرة" و"التضحية "بقوله:"فما هي المغامرة في ميدان الكفاح إلا الثورة المسلحة واي تضحية ينوء بها ابن باديس ويهدد بها ان لم تكن التضحية بالنفوس ." [25] وفي مقاله " اليأس بعد الرجاء" يدعو ابن باديس الشعب الجزائري والنواب والجمعيات التي حضرت المؤتمر بنسيان الحزازات ومحق الشخصيات بعدم التعاون في النيابة بجميع انواعها وعدم العودة إلا بالمساواة ،والمح إلى واجب اخر يبقى اداؤه لاحقا ..قال: "ايتها الأمة الكريمة ،ايها النواب الكرام ..اليوم وقد أيأسنا من غيرنا ،يجب ان نثق في انفسنا ،اليوم وقد تجوهلت قيمتنا ،يجب ان نعرف نحن قيمتنا ،اليوم وقد خرست

23- المصدر نفسه 326-327.

24- المصدر نفسه 326-327. =

الافواه عن اجابةمطالبنا .يجب ان نقول نحن كلمتنا .اليوم وقد اتحد ماضي الاستعمار وحاضره علينا .يجب أن تتحد صفوفنا ...

حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامي ان نبقى نترامى على ابواب برلمان امة ترى أو ترى اكثريتها ذلك كثيرا علينا ..ويسمعنا كثير منها في شخصيتنا الإسلامية ما يمس كرامتنا ، ويجرح اعز شئ لدينا ..لندع الأمة الفرنسية ترى رايها في برلمانها ولنتمسك نحن -عن ايمان وامل - بشخصيتنا..الى ان يقول : "هذا وانا كمسلم جزائري قد اديت الواجب الثاني من واجباتي في الوقت الحاضر والله المستعان على القيام ببقيتها ...". [26] ونخلص بعد عرض بعض زوايا هذا الموضوع إلى: ان الحوار في فكر الاستاذ ابن باديس عبر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

- كان مشروعا للتواصل مع الآخر -فرنسا- ثقافيا وحضاريا ودينيا.
- كان متفتحا على هذا الاخير ومستوعبا له في الوقت نفسه
- كان ممارسة لفعل التغيير داخل الشعب الجزائري .بالتبني لخطة دقيقة المراحل، تكتيكية الخطاب .واضحة الأهداف -لمن يعي سر الصراع ويفهم الواقع الجزائري ....-

لقدحدد الاستاذ ابن باديس -خطوطا خضراء -وضعها هو لنفسه ولجمعية العلماء عبر مواد القانون الأساسي للجمعية أولا وعبر مواد أصول الجمعية ودعوتها التي نشرتها مع القانون الأساسي للجمعية في كتيب واحد لاحقا.احال بها كل قوانين إدارة الاحتلال الفرنسي إلى العدم واقعيا .وجلب بها لنفسه وللجمعية شرعيةالنشاط التربوي والتعليمي والتهذيبي والسياسي والديني تحت عين وحماية تلك القوانين نفسها وعمل من ثم على بعث الشعب الجزائري من

---

25 = - أحمد حماني، الصراع بين السنة والبدعة أو القصة الكاملة للسطو بالإمام الرئيس عبد الحميد ابن باديس، قسنطينة دار البعث ،1984م، ج2،ص262.

26- من مقالة: اليئس بعد الرجاء " مشرقها مجلة الشهاب في 1937م، انظر آثار عبد الحميد ابن باديس، المصدر السابق ج5،ص 341-343.

جديد بإعادة نسج لحمة المجتمع فيه. وتجذير الندية الحضارية والدينية واللغوية التي تمكنه من استعادة حريته واستقلاله بيده .

وقراءة منطلقات الحوار مع "الآخر" الاحتلال الفرنسي - الذي مارسه ابن باديس -رحمه الله -فكرا وتعليما وسياسة وتربية - تؤكد ان النخبة العربية الجزائرية المسلمة وهي تساهم في الإجابة عن ذات السؤال التاريخي المطروح وقتها وحتى اليوم..عن الحداثة والتقدم ومستقبل الأمة الإسلامية .قد امنت بان الحداثة لا تقلد ولا تستعار. وإنما تصنع من خصوصية الثلاثية الحضارية وهي: الفكرة والإنسان والتراب وهي االثلاثية التي رفعها ابن باديس وجمعية العلماء شعارا ومبدءا ومنهجا وهدفا : الإسلام ديننا. والعربية لغتنا. والجزائر وطننا.

ان تحقيق الحداثة يكمن في الأساس في بعث الشعب الجزائري .لان الشعب الحي فقط هو الشعب الحري بان يستوعب حداثة الآخر -المسيطر والمتقدم- دون ان ينسى نفسه ومرجعيته. ثم يبدع حداثته الخاصة ضمن مرجعيته الخاصة . ومن هذه المعطيات تطرح الأسئلة التالية :

1 – هل الهدف من طروحات " الحوار مع الآخر" المعاصرة هو إرضاء هذا الآخر عنا أم أن الهدف هو أن نصنع خطوة التقدم والحداثة التي نريد بأنفسنا وهو الذي يمنعنا من تحقيقها ؟

2 – هل من الضروري جلد الذات .ومغالطة الأنا في رد تهمة التخلف والتعصب. التهمت القديمة الجديدة – الجاهزة دائما – . أم من المفيد أن نعي ذاتنا ونتصالح معها حتى لا تختلط علينا الضمائر من " الأنا " ومن " الآخر " فيندثر السبب والهدف ...والتقدم.... والحداثة... . ويندثر " الأنا " ويبقى " الآخر " ... ولن يرضى عنا ... ؟

يقول الله تعالى " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير "[27]

27– – البقرة،119.